

السرد الروائي المغربي وإعادة تشكيل الذاكرة التاريخية؛ تحليل لتمثلات الواقع الاجتماعي "دفنا الماضي" أنموذجا

Moroccan Narrative Fiction and the Reconfiguration of Historical Memory: An Analysis of Representations Social Reality in We Buried the past as a Modal

* حمريط فاطمة الزهراء

Hamrit fatima el zohra

مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية

جامعة يحيى فارس المدية (الجزائر)

University of Yahia Fares, Medea (Algeria)

hamritfatimaelzohra@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/02

تاريخ القبول: 2026/05/05

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

ملخص البحث

إنَّ المطروح هنا ليس اجتهداً فقهياً في الواقع الاجتماعي، بل يُنظر إليه شأنًا ثقافيًا واجتماعيًا ولأجل ذلك، كان البحث مضطراً لأن يتحرك بين فصول الرواية، محاولاً الكشف عن ملامح السردية الروائية، أثناء تحليلها بين ثنايا الواقع الاجتماعي، إضافةً إلى محاولة اختراق التاريخ المغربي، الذي أخذ منه "عبد الكريم غلاب"، مشعلاً بُغية تحقيق فهم سوسيوثقافي على أرض الواقع، وما يُمننا هنا الجو الواقعي الاجتماعي التاريخي. الكلمات المفتاح: الواقع الاجتماعي، التاريخ، الرواية المغربية، دفنا الماضي، السوسيوثقافي.

Abstract :

What is presented here is not a jurisprudential interpretation of social cultural matter, for this reason. The research was forced to move between the chapters of the novel, trying to reveal the features to the narrative of the novel. During its travels between the folds of social reality. In addition to trying to penetrate Moroccan history. Which Abd karim Gallab took it as his work in order to achieve a socio-cultural understanding on the ground. And what concerns us here is realistic social-historical atmosphere.

Keywords: narrative, social reality, Moroccan novel, burying the past, sociocultural.



مقدمة:

لكل عمل أدبي آليات أساسية يقوم عليها، والرواية جنس أدبي ذو بناء فني يعكس حياة المجتمع، ويعدُّ أساس تفكيك بنياته الحضارية، إذ لا يمكن الجزم بوجود مدلول متعالٍ داخل الخطاب السردى، لذلك لجأ العديد من الروائيين إلى التقاط الواقع الاجتماعي للإنسان، وهو واقع قد يكون أكثر جالاً أو أكثر قبلاً. ومن بينهم "عبد الكريم غلاب" الذي قدّم روايته "دفننا الماضي" تصويراً لمعطيات المجتمع البرجوازي المغربي؛ فجاءت الرواية مزيجاً من المعرفة والتصوير، ولقاء خاصاً بين الواقعي والتمثيلي.

وإذا صحّت العبارة القائلة إنّ السرد التاريخي والحقيقة في القصة ليسا مجرد استقصاء للحوادث المتعلقة بالسرد، ولا للمتغيرات التي يُحدثها السارد لدى القارئ بل هما استقراء للواقع الاجتماعي من خلال السارد والقارئ على امتداد السرد ذاته، إذ أنّ أصل الفن السردى هو ملاحظة الواقع. ومن هنا يغدو البحث محاولة فكرية تتمحور حول دلالات العلاقة التفاعلية بين تاريخية الرواية والواقع الاجتماعي. ومن هذا المنطلق تبرز مجموعة من الإشكاليات، أهمها: كيف استطاع الروائي الاشتغال على الواقع وإدخاله داخل النص الروائي؟ وهل تمثل الرواية نوعاً من الذاكرة التاريخية؟ وهل يمكن القول إنّ الكتابة القصصية تسعى إلى التأريخ لحقبة تاريخية معينة في المجتمع المغربي؟ سنكتفي هنا بتسليط الضوء على واقعية الرواية، والحفر في الذاكرة التاريخية، تسليطاً يقوم مقام الإيضاح.

1/- مفهوم التاريخ وإشكالية تحديده المعرفي:

قال ابن خلدون -بعد مدخل بلاغي- "أما بعد: فإنّ فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشدُّ إليه الركايب والزّحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقبال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى... فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق". (مؤنس، صفحة 15)

وقد أثار مفهوم التاريخ جدلاً واسعاً بين الباحثين: هل هو علم قائم بذاته أو لا؟ وبعيداً عن هذا الجدل، نحاول تحديد دلالة التاريخ في المعاني الآتية:

أ/ "يجرى الحوادث فعلي أو موجودوا التاريخ وصانعوه الذين غيروا شؤون العالم بأعمالهم مثل: الاسكندر الأكبر والرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وعيسى عليه السلام، وصلاح الدين الأيوبي، وعبد المؤمن الموحي، وأبطال ثورة نوفمبر الكبرى.

ب/ التدوين القصصي لجرى شؤون العالم كله أو بعضه مثل: تدوين تاريخ الجزائر وبلدان المغرب وشعوبها، وتدوين تاريخ العرب قبل الإسلام، وتدوين تاريخ أمريكا، والفنون، والآداب، والعلوم والشعوب، وما إلى ذلك.

ج/ البحث أو التعلم بواسطة البحث، أو المعرفة التي يتوصل إليها عن طريق البحث والمقصود بها، الاستقصاء والبحث وطلب الحقيقة". (بوعزوز، صفحة 148)

2/- الرواية بين تمثيل الواقع الاجتماعي واستحضار الحدث التاريخي:

"يشير جورج لوكاتش في كتابه "الرواية التاريخية" إلى الحس التاريخي في السرد، أو الرواية ويُقصد به البعد الخارجي القائم على عوامل خارجية، لا تتصل بإشكالية التاريخ". (شهاب، 2021، صفحة 109)

وتتقرب هذه الرواية من عظمة الملحمة؛ إذ حافظ الكاتب على الأسس الجوهرية التاريخية التي تميز بها العمل الروائي. ومن هنا يقول لينين: "لقد كان التاريخ وعلى الأخص تاريخ الثورة منه، أكثر ثراء في مضمونه، وأكثر تنوعاً وتعقيداً وحيوية، وكذلك أكثر حيلة ممل تتخلله أفضل الأحزاب الطلائعية، التي هي أكثر وعياً بالطبقة التقدمية" (لوكاتش ج..، نظرية الرواية وتطورها، تر: نزيه الشوفي، تركي محمود، 1988، صفحة 87)

وقد رسم السارد صورة حيّة في مخيلتنا من خلال تحرك الأحداث داخل عملية الحكي، بحيث منحها دوراً فاعلاً في توجيه مسار الأحداث التاريخية، فقد كان عبد الرحمن "يعيش جوّ الحرب وقصصها. كانت ترتفع بفكره عن المحدود إلى اللامحدود، وكانت تخرج به من زقاق الخفية وساحتها إلى معارك الباسفيك، وغارات آلاف الطائرات على سكان المدن إلى تخريب القارات، ونسف ملايين البشر ... ولم يكن ينتظر لفاس السلام في ظل الجوع، والبؤس والحرمان والمرض، ولكنه كان يتوقع الحرب بكل ما تحمله أنبأها من دعر، وقتل وتشريد". (غلاب، 2011، الصفحات 260-261)

في ظل تاريخية الرواية وتجسيدها للتفاعل مع الواقع الاجتماعي، تتكشف المعاقبة بين المعنى والتعدد الجمالي السردى، حيث يمتزج الواقعي بالتاريخي في لغة تحمل حرارة التجربة وصدف الإحساس. ومن ثم فإنّ التعامل مع هوية الرواية وتجسيدها الملموس يكشف عن قدرة التعبير عن الواقعية الاشتراكية، و"بالتالي للتعامل مع هوية الرواية وتجسيدها الملموس يظهر القوة اللامحدودة للتعبير عن الواقعية الاشتراكية، التي تتيح لكل النماذج البشرية التعبير عن موقعها ووعيا وحالتها من خلال واقعها الطبقي المعيش، أي الوقوف على تمثيل فترة سوسيوتاريخية وثقافية كإسئلة للواقع". (سهيلة، 2021، صفحة 856)

وقد عالج عبد الكريم غلاب في روايته القضايا الاجتماعية التي تعبر عن هموم الفرد المغربي في مرحلة حاسمة من تاريخ البلاد، إذ تنبثق العملية الإبداعية لديه من رؤية واقعية تمس التجربة الإنسانية وتلامس أبعادها الروحية والفكرية. "والملاحظ أنّ السيرة الذاتية والقضايا الاجتماعية يحظيان بأهمية كبيرة في الرواية المغربية، هذه الرواية يحكمها هاجس مشترك، يُحفز خيال الكاتب ويستثير رغبتهم في الكتابة". (عقار، 1421هـ/2000م، صفحة 24)

3/- جدلية الموت والذاكرة في تشكّل الخطاب الروائي :

تتجلى هذه التيمات من خلال المسارات التصويرية للرواية، سواء أكانت مجرد وقائع عارضة أم لحظات خاطفة، وذلك عبر تقنية استرجاع الذاكرة. ويتجلى هذا الأمر في البنية الخطية للخطاب الروائي، التي تتسم بالتفكك الزمني؛ إذ يتنقل السرد بين الماضي والحاضر. وغالباً ما يقود هذا التداخل الزمني إلى آلية التذكّر، التي تتشكل في سياق ما يشبه الملحمة التاريخية؛ حيث تُستدعى شتات الذاكرة المغلفة تاريخياً، وتتقاطع فيها ثنائيات الغبن والعدل، والحاكم والمحكوم، والأجنبي والوطني. وبناءً على ذلك "لن تكون صفحات الرواية الشاسعة إلاّ إشارات متعاقبة إلى وليد سريع النماء" (دراج، 2004م، صفحة 241)؛ أي صفحات الرواية المتتابعة لا تُشكّل سوى إشارات متلاحقة سريعة الإيقاع.

والمقصود هنا هو ذلك الرف الأنيق الذي اعتمده الكاتب، في رصد الثنائيات المتباينة من حيث الطرح والبناء السردى والمتن الحكائي. ويظهر جلياً في قوله: "وانطلقت فاس تهذر بالنبا المشؤوم في يوم هو يوم عيد، فيما يزعم حساب الشهور والأيام، وهو يوم مآثم عام فيما يؤكد الواقع". (غلاب، 2011، صفحة 397)

إن الرواية أماننا، نص مفتوح على أفق واقعي حقيقي، يسعى إلى إدانة الواقع وكشف تناقضاته. والحقيقة أن "عبد الكريم غلاب" استخدم اللغة كغواية، لينقلنا إلى ساحة الرواية بغرض الكشف عن عمق المحمول الاجتماعي المغربي، فالنص عمومًا "نسيج من الدوال التي تُكوّن العمل، لأن النص هو التساوي مع اللغة ذاتها، وأنه من داخل اللغة يجب أن تقاوم اللغة، وإن التحول ليس بواسطة الرسالة التي تحملها والتي استعملتها كأداة، ولكن عن طريق اللعب بالكلمات التي هي مسرح لها". (البشير، 2018، صفحة 67)

وقد استخدم "عبد الكريم غلاب" لغة ذات طابع تاريخي، لأن طبيعة الرواية تقتضي لغة قادرة على إثارة الانتباه ببصيرة المؤرخ. وفي هذا السياق يقول حسين خمري: "التاريخ من هذه الزاوية هو تجريد له من الأحداث وعزل عن السياق الاجتماعي الذي أوجده، لأن المؤرخ ليس بمقدوره البقاء في مستوى البنية، فتاريخ بلا أحداث بلا أساء ولا وقائع، سيكون بالغ التجريد" (خمري، صفحة 12)

كما وظّف الكاتب ظاهرة الموت في نهاية الرواية توظيفاً دلاليًا، إذ لم يكن ذلك مجرد نهاية للسرد، بل جاء بوصفه اختياراً فنياً واعياً ينسجم مع منطق العمل الروائي. فالموت في الخطاب السردى ليس حدثاً عابراً، بل هو أمر محتوم لا مفرّ منه، حاول الكاتب من خلاله تسليط الضوء على موت "الحاج محمد التهامي" في الرواية، بما يحمله من دلالات عميقة وصور دقيقة، راسخة ومتجددة في ذهن المؤلف، يقول السارد:

"وتقدم عبد الرحمن نحو والده، وأمسك بيديه الباردتين ليجس نبضه الواهن، وهتف به في همس: أي ... أي ...

ولم يكن لهاتفه صدى إلا في الأنفاس الواهنة، وشعر عبد الرحمن بأن صدر والده يعلو في عنف وتحمّد أنفاسه فجأة، ثم يتحول النفس الهادئ الوديع إلى شخير مزعج وأعاد الكرة يهتف بوالده:

أي ... أي ... " (غلاب، 2011، صفحة 433)

إن حضور الموت في السرد الروائي يؤكد جرأة السارد في مواجهة الموت في شكله الحقيقي؛ فهو لا يقدمه بوصفه حدثاً معزولاً، بل يضعه في تماس مع الألم والمرارة. وهكذا، خلف غياب الأب في نفس السارد شعوراً راسخاً بالاغتراب والحرمان، والموت هو من أقسى التجارب أثراً في نفسية عبد الرحمن وأشدّها وطأة. ويشير السارد إلى ذلك بقوله: "نفض عبد الرحمن يده من تراب الحاج محمد، وسار إلى القصر بين جماعة من أفراد العائلة وأصدقائها ... سار وفي أذنه صوت يدوي:

- دفنا الماضي.

- سار ثم سار ... ومن خلال عينيه اللاهبتين المحمرتين انبعث خيال عبد العزيز وصوته يهمس في أذن عبد الرحمن:

- لا ... لم ندفن بعد الماضي ...؟ " (غلاب، 2011، صفحة 435)

وترتبط " دلالة الموت في علاقتها بالشخصيات بتراجيديا الواقع المعيش، وشروخ الذاكرة المشوشة بالأسى، لكن شخصيات الرواية وفي مقدمتها شخصية البطل، تجعل من بعض القيم الإيجابية كالحب والصدقة والوفاء ... أساليب تواجه من خلالها مرارة الموت وسقوطه". (جوادي، 2021، جوان، صفحة 7)

وإذا كان الموت يمثل في بعده الإنساني المصير الحتمي للوجود البشري، فإن حضوره في الرواية يتجاوز دلالاته البيولوجية المباشرة، ليغدو عنصراً بنائياً ودلالياً ينبثق من رحم المأساة الوطنية. وقد نجح "عبد الكريم غلاب" في توظيف هذا المعطى توظيفاً فنياً واعياً، معتمداً على ذاكرة القارئ وقدرته التأويلية، إذ يفسح المجال أمام عملية استحضار الذاكرة بوصفها أداة مركزية في بناء المعنى، إذ ترجم " عملية انهيار المشاعر المتباينة والذكريات المتقطعة، التي تعبر عنها عادة في جمل ناقصة، ذات طبيعة إنشائية وقفزات متتالية ورميزات حلمية مكثفة، بحثاً عن مشاهد بصرية وكوادر حقلية ولقطات متقطعة لترجمة هذا العالم الداخلي". (فضل، 2003، صفحة 216)

4/- روح التاريخ وسؤال الواقعية:

أ/ الذاكرة والتاريخ جدلية الاستعادة والتدوين: يطرح عنوان "دفنا الماضي" سؤالاً إشكالياً يتجاوز دلالاته الظاهرية، إذ يحيل إلى علاقة معقدة بين الذاكرة والتاريخ. فالرواية تستحضر مرحلة محددة من تاريخ المغرب، بزمنها ومكانها وسياقها الاجتماعي والسياسي، حتى بدت شخصياتها وكأنها وثائق تاريخية نابضة بالحياة. غير أن "غلاب" لا يكتفي بمجرد استعادة الماضي بوصفه مادة تاريخية جامدة، بل يعيد تشكيله تخيلياً، جاعلاً منه أفقاً للتأمل في مصير الإنسان وفي جدلية الزمن. ومن ثم يغدو التاريخ أحد المحركات الأساسية للخطاب الروائي، ومصدراً من مصادر استغلال الذاكرة داخل النص. فـ "دفنا الماضي" ليس مجرد استعادة لوقائع منقضية، بل هو استنطاق للماضي من أجل مساءلة الحاضر وفهم تحولاته. وفي هذا السياق يشير "منير صاغة سعد الله ونوس" قائلاً: "على الأديب أن يستدرك قصور المؤرخ، يرى المؤرخ غالباً ما يريد غيره أن يرى، ويرى الأديب إن كان أديباً ما ترجمه التاريخ في وقائع تذهب إلى العقل والعين دون خصام". (درج، 2004م، الصفحات 261-262)

لقد أبلينا بلاءً حسناً، بهذه الرواية بتقنياتها وفنونها، فشكّلت عالماً سحرياً بدع الجمال بمقادير تاريخية. يقول "عبد المالك مرتاض": "ولا تريد الرواية أن تندنى لغتها إلى هذه النثرية الفجة المبتذلة، فتسعى على أيدي كبار كتابها". (مرتاض، 1998، صفحة 12)

وعلى الرغم من أن الرواية تستند إلى سجلات لغوية وتاريخية متعددة، فإنها لا تفقد طابعها الإبداعي، إذ تظل منفتحة على أبعاد إنسانية وثقافية تتجاوز حدود الزمان والمكان. وفي هذا السياق يؤكد "عبد الحميد عقار": "إنَّ الفضاء المغاربي رغم تجزئته الإدارية والسياسية ذو وحدة إنسانية، وثقافية ظاهرة، ولا يقوم على قوميات مختلفة تمزقها اللغة والتجارب التاريخية". (عقار، 1421هـ/2000م، صفحة 12)

ومن هنا يمكن القول أنَّ الخطاب الروائي، في دفنا الماضي "ملزمة بأن تكشف عن المحتوى الاجتماعي للصراع وافتراضاته المسبقة التاريخية وظروفه". (لوكاتش غ، 2021، صفحة 19)

ب/ تجليات الوعي التاريخي في دفننا الماضي: لقد كان "عبد الكريم غلاب" يمتلك وعيًا تاريخيًا واضحًا مكّنه من مقارنة الأسئلة التاريخية بعمق فكري وجمالي. ويتجلى ذلك في إحساسه القوي بحتمية الارتباط بين الرواية والتاريخ؛ إذ "يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي، ويُسائل الثاني الحاضر، وينتهيان معاً إلى عبوة وحكاية". (درج، 2004م، صفحة 9)

لقد أمست هذه الرواية خطاباً سردياً يقوم على توظيف لافِت للسرد التاريخي، بحيث تتخذ الكتابة الروائية منحى يستثمر المادة التاريخية ليمنح النص أفقاً دلاليًا أوسع، فالرواية في هذا السياق، لا تكنفي باستعادة الوقائع الماضية بوصفها معطيات جاهزة، بل تعمل على إعادة تشكيلها تخيليًا، بما يسمح بدمج التجربة الذاتية بالتجربة الجماعية. ومن ثم تبدو الرواية أشبه "بسيرة ذاتية تستوعب في تأريخها للأنا الخاص والفردى، ما يتصل بالتاريخ العام". (عقار، 1421هـ/2000م، صفحة 161)

وتنتهي رواية "دفننا الماضي" إلى فضاء سردي متجانس، يتشكل من بنية اجتماعية وسياسية متوترة، تُهمّن عليها مظاهر القمع والاستبداد المرتبطة بالسلطة الاستعمارية. ومن خلال هذا التصوير، تتجلى الرواية بوصفها شهادة فنية على مرحلة تاريخية مضطربة، حيث تتقاطع التجربة الفردية للشخصيات مع التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع المغربي آنذاك. وفي هذا الإطار يحتل فضاء "السجن روائيًا مكانه الواسع، فهو مبتدأ القول، والمدخل الأساسي إلى الواقع". (درج، 2004م، صفحة 223)

ومن هنا يمكن القول إن الكاتب لا يكتفي بتصوير معاناة الشخصيات، بل يسعى إلى إبراز قدراتها على التماسك والصمود في مواجهة القهر. ولذلك لا يفقد عبد الرحمن - بوصفه أحد المحاور السردية الأساسية - تلك الطاقة المعنوية التي تميّزه، والتي تظهر في رباطة جأشه وصلابته النفسية. فهذه الصلابة تمثل في جوهرها نوعًا من "البلمس الذي يصّر الكاتب على الحفاظ عليه طول الرواية". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، صفحة 147) لما يمنح النص بعدًا أخلاقيًا وإنسانيًا واضح المعالم.

يقول السارد: "ليكن مصري مزيّدًا من اللطات، والكلام البذيء ... " (غلاب، 2011، صفحة 238) ويقول أيضًا: "نحن في حاجة إلى التجربة، إلى مزيد من الإهانات ليقوي فينا روح التمرد ... " (غلاب، 2011، صفحة 239)

وأيضًا: "لكل شيء ثمن، وثمن ما نريد: المحنة، القسوة، ... العذاب ... الموت، السجن سنين". (غلاب، 2011، صفحة 224)

وتكتشف هذه المقاطع السردية عن طبيعة الوعي الذي يحكم الشخصيات، إذ يتحول الألم إلى أداة لاكتساب الخبرة التاريخية، وتغدو المعاناة شرطًا من شروط الوعي بالحرية. ومن ثم لا يعود السجن مجرد فضاء للعقاب، بل يصبح مجالاً لإعادة بناء الذات واكتشاف أبعادها الداخلية؛ وهو ما يفسر قول السارد: "ومن ثم كان يجد الراحة والاطمئنان النفسي داخل السجن". (غلاب، 2011، صفحة 357)

إن الفلسفة الضمنية التي تنهض عليها الرواية تقوم في جوهرها على انغراس النص في الواقع الاجتماعي، واستناده إلى مؤشرات تاريخية وثقافية واضحة. غير أن هذا الارتباط بالواقع لا يعني الوقوع في فخ المباشرة أو التسجيلية؛ فالرواية على

الرغم من افتتحها على المرجعية التاريخية، تظل محافظة على بعدها الجمالي والتخيلي. ومن هنا يمكن القول إن العمل الروائي "لا يتجنب فقط العمل الواقعي الملموس، بل يسعى أيضاً إلى دروب طوباوية بالمعنى الاجتماعي العام". (لوكتاش ج.، دراسات في الواقعية، تر: نايف بلوز، 1985، صفحة 12) أي لا يكتفي بمحاكاة الواقع الملموس، بل يسعى إلى بناء واقع دلالي جديد، تتقاطع فيه الأبعاد الاجتماعية مع الرؤية الفكرية للكاتب.

5/- تمثلات الذاكرة في النسق الاجتماعي :

إن محاولة فهم الرواية من الداخل تقتضي استنطاق بنيتها الاجتماعية والثقافية، وذلك عبر الاستفادة من بعض معطيات المناهج النقدية الحديثة، ولا سيما المقاربة السوسيولوجية للنص الأدبي. فالرواية في هذا المنظور ليست مجرد بناء جمالي مستقل، بل هي أيضاً وثيقة ثقافية تكشف عن البنى الفكرية والاجتماعية التي أنتجتها.

وتتجلى هذه الخاصية بوضوح في رواية "دفنا الماضي" إذ تعود فيها "اللوحات التسجيلية، لتقوم بنفس الدور الذي قامت به القصص السابقة، فالكاتب هو من يطرق موضوعاً متعلقاً بمرحلة ماضية، كان يبحث عن طريقة يخفف بها من حدة الحكاية التاريخية فيكسبها صبغة إنشائية، وكانت هذه الطريقة التي عثر عليها الكاتب هي الوصف التسجيلي والوصف الاثنوجرافي". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، الصفحات 153-154)

ومن ثم يصبح الوصف أداة أساسية في الكشف عن ملامح الواقع الاجتماعي، حيث تتداخل فيه الأبعاد التوثيقية مع البنية الجمالية للنص. فالكاتب من خلال هذا التوظيف الفني للوصف لا يسعى إلى نقل الواقع كما هو فحسب، بل إعادة تأويله ضمن رؤية فكرية تسعى إلى فهم التحولات الاجتماعية العميقة التي عرفها المجتمع.

ومن هنا يغدو التحليل النقدي للخطاب الروائي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعالم الاجتماعي الذي ينبثق منه. "فالحديث عن الواقع خصوصاً إذا كان يشغل مساحة واسعة في الفضاء الروائي ينبغي أن يكون شديد الارتباط بمكونات العالم الروائي، وأن يكون هذا الارتباط أيضاً سببياً، بحيث لا يمكن الاستغناء عنه وإسقاطه من بنية الرواية". (لمحمداني، من أجل تحليل سوسيو - بنائي للرواية، رواية المعلم علي نموذجاً، 1984، صفحة 37)

وتزخر رواية "دفنا الماضي" بعدد كبير من اللوحات الوصفية التسجيلية، من بينها؛ الوصف المطول لحفلة كناوة (الفصل السابع)، أو وصف الربيع في مدينة فاس (الفصل الحادي عشر)، أو وصف الصيف في مدينة فاس، فضلاً عن قصة "عائشة" وزوجها". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، الصفحات 155-156)

ولذلك فإنّ المادة التي يعالجها "غلاب" في روايته تحمل قيمة جمالية واجتماعية في آن واحد؛ فهي لا تقتحم عالم الأدب بوصفها تسلسلاً زمنياً للأحداث فحسب، بل باعتبارها شبكة من العلاقات السببية التي تكشف عن بنية اجتماعية كاملة. ومن اللافت أن "غلاب" يدافع عن مبدأ الشهادة في الأدب، بوصفها (المثال الأسمى لارتباط الأدب بالحياة) وإذا كان "غلاب" يربط بين الشهادة للماضي والحاضر، وبين الالتزام بالمستقبل فإننا نرى في روايته الشهادة للماضي فحسب، فروايته تتكئ على الماضي، وكانت روايته مسجلة للحظة السعادة الماضية". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، صفحة 159)

يقول السارد: "لم يبد على فاس قلق أو اضطراب، مثل هذا الذي تشهده الآن، ولم يعرف الناس قلقاً صامتاً مثل هذا القلق الذي تحس به القلوب عن وعي وتحدث به العيون في صمت، ويبدو جلياً واضحاً في وجوه الناس، وقد جللها الاصفرار ونال منها الفقر والجوع والمرض". (غلاب، 2011، صفحة 299)

إنّ الواقعية التي تميّزت بها رواية "دفنا الماضي" كانت قائمة على فكرة مركزية، هي فكرة الاستقلال، وما يرتبط بها من ضرورة تحقيق تماسك المجتمع، وقد انعكست هذه الرؤية على تصور غلاب للواقع بوصفه واقعاً اجتماعياً قبل كل شيء، الأمر الذي جعل الرواية تنحاز إلى فضاء اجتماعي محدّد ذي خصوصية واضحة.

6/- الرواية الغلاية الماضية بين تاريخية الصراع وواقعية التجسيد:

"إنّ الوسائل الفنية التي ميّزت واقعية غلاب – تتجلى في رواية "دفنا الماضي" – تقوم على "تقديم تصوير خاص للصراع الاجتماعي في رواية دفنا الماضي" (لمحيداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، صفحة 159)

"فتقابل الأجيال في صراع متخيل، لا معنى له لأنّ الذي يحدّد المواقف لدى الناس ليس هو العمر، ولكن الوضع المادي والمؤثرات الفكرية، ورغم أنّ الرواية تجعل عبد الغني ومحمود الشايبين ينتميان إلى جيل الماضي، فهي مع ذلك لا تريد أن تتخلّى عما تسميه الصراع بين الأجيال، بل إنّها تخلق تلك الثنائية وتجعلها أساسية على الدوام في تحديد السيرورة الاجتماعية". (لمحيداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، صفحة 160)

وعلى الرغم من أن الرواية تجعل عبد الغني ومحمود الشايبين ينتميان إلى جيل الماضي، فإنها لا تتخلّى عن فكرة الصراع بين الأجيال، بل تعيد صياغتها لتجعلها عنصراً أساسياً في فهم التحولات الاجتماعية.

كما نلاحظ مبالغة في نفي الصراع الطبقي وتعويمه في إطار صراع عام بين الأجيال. يقول السارد: "واقع ... ولكن الطبقة شيء جديد على هؤلاء وأولئك يميزهم الغنى أو الفقر، ولكنهم جميعاً يتعاونون في الحياة، كأنّهم لا يميزهم غنى ولا فقر، حتى أخذ هؤلاء الدُّخلاء يصنفون الناس كما يُصنفون البقر: جياذ وغير جياذ، أعيان وغير أعيان". (غلاب، 2011، صفحة 295)

إنّ أهمية الرواية تتجلى أساساً في قدرتها على استيعاب الواقع الاجتماعي في شموليته، غير أن "عبد الكريم غلاب" يميل إلى جعل "الجوانب الأساسية، في الصراع الاجتماعي، مجرد واجهة للترتين في الرواية". (لمحيداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، 1985، صفحة 162)

ولقد لاحظ "سيد حامد النساج" هذه المسألة عند تناوله رواية "دفنا الماضي"، إذ أشار إلى أن "العلاقة التي ترتب على شكل الملكية بين من يملكون الأرض، وبين من يعملون بسواعدهم في الأرض يكاد هذا الخيط ينقطع، فلا نظفر له بأي شكل من أشكال الامتداد والتواصل، بل إنّهُ يتوقف عند هذا الحد من الحوار بين قدور وزوجته فاطمة وكان من الممكن أن يُشكل بعداً من أبعاد الرواية لو أنّ الكاتب احتفظ به حتى نهاية الرواية، بدلاً من أن ينجي هكذا كخلفية أو ديكور للحظة ثم يختفي". (النساج، 1967، صفحة 119)

7/- إعادة بناء مفهوم الأمة وتراتبية العناصر في سياق النضال:

على رغم من أن النظرة الشمولية للواقع الاجتماعي ظلّت بعيدة الحضور في رواية "دفنا الماضي" فإن رؤية الرواية تسجل مع ذلك تقدماً ملحوظاً نحو هذا الأفق الشمولي. غير أننا نلاحظ "أنّ عناصر الأمة خضعت لنوع من الترتيب،

يحدّد أهمية كل عنصر في الصراع مع المستعمر ... إنّ وقوع الكاتب في مثل هذا التصور التفاضلي تفسره مسألتان:" (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ، 1985، صفحة 164)

أ/ اعتقاد الكاتب بأنّ المسار الفكري أكثر قيمة من المسار العملي، ولذلك نرى أنّ النضال بالكلمة أشدّ وقعاً من النضال بالسلاح، ولقد انتهى "غلاب" إلى القول بأنّ الحركة الوطنية - كما ظهرت بشكل علني في أواخر العشرينات - هي التي استطاعت أن تصوغ نظرية كاملة، وتصوراً يُحدّد الأهداف النضالية، أي أنّها كانت بالدرجة الأولى صاحبة نظرية فكرية، حتى أنّها أخرجت مفهوم النضال الوطني (من العموميات والمبهات، والغموض). (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ، 1985، صفحة 165)

لقد قدّم الكاتب بالفعل في روايته حواراً إيديولوجياً يقترب من استحضار الذاكرة التاريخية. ويرى علال الفاسي " أنّ التفكير شمولياً هو أن نستحضر أثناء اهتمامنا بعمل ما جميع أجزاء البلاد وعناصر الأمة، أنّه أن ننظر إلى وطننا ككل لا يقبل التصور الأكمل، وإلى النفع كخير لا يمكن تحقيقه إلاّ شاملاً". (الفاسي، 1952، صفحة 15)

ب/ ويرجع سبب تبني الكاتب له الرؤية التفاضلية لقطاعات الأمة، إلى طبيعة المرحلة التاريخية التي كتبت فيها رواية "دنا الماضي"؛ فهي فترة قلق وحيرة "كانت تعانيها تلك النخبة المثقفة التي كانت تنتمي إلى الحركة الوطنية، وقد وجدت نفسها تتخلّى - رغماً عن أفهامها - على تلك الطموحات التي كانت تريد تحقيقها بعد عهد النضال". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ، 1985، صفحة 165)

ويرى إدريس الناظوري: أن "دنا الماضي" يمكن النظر إليها بوصفها نوعاً من الدفاع عن مرحلة تاريخية بعينها، ومحاولة لإعادة قراءة تجربة النضال الوطني في ضوء التحولات التي عرفها المجتمع بعد الاستقلال. ولا شك أنّ "غلاب" مقتنع بأنّ "البورجوازية عمل الكثير على الخروج منها، ولكن بالحلول والمواقف المسجلة في تاريخ وتراث تلك الطبقة، وجميعها أصبح اليوم محط تساؤل وتقييم". (لمحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ، 1985، صفحة 166)

ورغم التركيز على البعد الاجتماعي في الرواية، فإن رواية "دنا الماضي" تقترب من الواقع الاجتماعي المغربي برؤية تفاضلية تكشف الأدوار التي تؤديها مختلف الفئات الاجتماعية في سبيل استنطاق اللحظة التاريخية واستثمارها، بما يتيح قراءة أعمق لتحولات المجتمع.

ولابد أن نستحضر انطباع "عبد الله كنون" أثناء قراءته للرواية، حيث خلفت في نفسه صدئاً قوياً، إذ وجد فيها إحساساً عميقاً بالماضي؛ إذ يقول: "إنّما نقلتني إلى الماضي الحافل بالأحداث، والمغامرات البطولية التي كان الفرد المغربي يخوضها بإيمان صادق كدنا نفقده اليوم، وزجت بي في جو المجتمع المغربي الذي عرفته ونشأت فيه، والذي كُنّ بروح المحافظة وهيمته التقاليد - حداثاً فاصلاً بين التطور الذي سعيبت إليه، والاندماج الذي تتردى فيه الآن؟!" (لمحمداني، من أجل تحليل سوسيو - بنائي للرواية، رواية المعلم علي نموذجاً، 1984، صفحة 109)

8- تفصيل النوستالجيا الفاسية مع خطاب الذاكرة التاريخية:

جاءت رواية "دنا الماضي" لتعزز غزارة الإنتاج الإبداعي المغربي، وقد حاولت هذه الرواية عبر رغبة فنية جادة، استرجاع الماضي العتيق واستحضار لحظاته الحاسمة، بما فيها من عتات وظلال، قصد انتشالها من النسيان وإعادة إدراجها في الذاكرة الثقافية.

فهذه الرواية كونها مجرد حكاية رغبوية تختفي بالواقع والتاريخ فحسب؛ إذ تنطوي على تمثلات الذات للواقع والتاريخ في مساراتها الزمنية المتعاقبة، في لحظة كان فيها الكيان المغربي يواجه اختباراً عسيراً أمام التدخل الاستعماري وغزو الآخر للبلاد.

وتتحول مدينة فاس، بوصفها الفضاء المؤطر لفعل السرد داخل الرواية، إلى مركز للرؤية وبؤرة للتصور الكوني الداخلي للكتابة؛ إذ تحكم موقعها الثقافي والتاريخي داخل البناء الروائي المغربي، باعتبارها "لبنة أساسية في مُشكّلات الذات والهوية والذاكرة، ليس فقط بالنسبة للكتاب والمبدعين بل للمغاربة قاطبة، حيثما حلّوا وارتحلوا". (الحجري، 2014، الصفحات 176-177)

9- تمثلات الواقع الاجتماعي والتاريخي وآليات اشتغالها في الخطاب الروائي:

يعدّ الروائي -"عبد الكريم غلاب" بطبيعة كتابته المرتبطة بهيومان المجتمع- شاهداً على التحولات التي عاشها المجتمع المغربي؛ وهو ما يتجلى في مواكبته الدقيقة للواقع الاجتماعي عبر نصوصه السردية. فقد تحوّل من كاتب إلى مؤرخ سردي يرصد نبض الجماع من خلال فضاء الرواية، حيث يغدو النص سجلاً للواقع ممزجاً بالتاريخ في صيغة فنية تتداخل فيها الحقيقة مع الخيال. فالخيال في الرواية ليس مجرد عنصر جمالي، بل أداة تأويلية يستثمرها الكاتب لإعادة تشكيل الواقع الاجتماعي، سواء عبر التركيز على "الذات وعوالمها الفردية (الواقعي أو رمزياً يمزج عن الواقعي)، ويتخذ الحكاية رمزاً للتعبير عن أفكار مجردة، أو رومانسياً ينأ بالحكاية عن صخب الحياة الاجتماعية والمدنية وينقلها إلى أماكن منعزلة عن المجتمع، تتمتع بالأجواء الشاعرية والرومانسية". (بوعزة، 2010، صفحة 24)

وقد عمد "عبد الكريم غلاب" في بعض نصوصه إلى استدعاء أحداث وقعت في الماضي، مستحضراً مرحلة زمنية معينة من خلال قراءة تأويلية للتاريخ. فهو لا يهدف إلى إعادة بناءها سردياً بما يخدم الرؤية الروائية، بحيث يظهر "الواقع" أو جزء من الواقع في الرواية؛ إذ يتطلب من الروائي حرفية أكثر، باعتداده على الاختيار والانتقاء من الواقع ما يناسب طبيعة موضوع الرواية". (كعبش، صفحة 42).

من البديهي أن "عبد الكريم غلاب" يُوظف التاريخ في روايته، خاصة إذا كان السرد قائماً على أحداث ماضية، إذ لا يقصد من استدعاء التاريخ تقديم عرض توثيقي دقيق للوقائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بقدر ما سعى إلى استثمارها بوصفها مادة تخيلية تغني العمل الروائي. ولذلك فإن الروائي لا ينطلق من حقيقة تاريخية صلبة بقدر ما يعيد تشكيلها داخل أفق سردي رحب، تتحول فيه الوقائع إلى عناصر فنية تسهم في بناء العالم الروائي وتغذية دلالاته. والهدف من الكتابة التاريخية "ليست مجرد أحاديث فارغة، بل هي خطابات تُعبّر عن "روح الشعب" وتطلعاته، وتعكس قيمه وشخصيته ووعيه، وطبيعته الأخلاقية وأهدافه". (ولد أباه، 1994، صفحة 23)

إن الارتباط الإنساني بالتاريخ لا يقوم على مجرد الانتماء إلى الماضي، بل يتجسد في التفاعل الخلاق معه، "فكلما ارتفع الإنسان في مراتب الإنسانية ارتقت نظرته التاريخية، وغزر فعله التاريخي، وكذلك كلما كان وعيه للماضي أصفى ومجاهته له أصدق، وأعمق اغتنى كيانه الإنساني، وغدا أقدر على الإنتاج والإبداع" (زريق، 1959، صفحة 22)

وفي هذا الإطار تحاول الرواية التاريخية أن تمنح للتاريخ بعداً جمالياً جديداً، إذ تسعى – كما يشير سعيد يقطين - إلى التفكير في الواقع من خلال استحضار التاريخ والتعامل معه واستثماره، لتقديم صورة جديدة للواقع". (لعياضي، 2020، صفحة 1123)

فالكتابة عن التاريخ لا تعني إعادة إنتاجه حرفياً، بل تعني إعادة بنائه داخل خطاب روائي يتجاوز حدود التوثيق إلى آفاق التخيل. ومهما "قرأنا وراجعنا من مصادر سيظل العمل (روائياً) أكثر منه (تاريخياً)". (الريعي، 2005، صفحة 102)

وعلى هذا الأساس، فإن حضور "التاريخ في الرواية يبقى موضوعاً محايثاً لسردها على الدوام" (لعياضي، 2020، صفحة 1124) لما يتيح من إمكانات تأويلية متعددة تسمح بإعادة قراءة الماضي في ضوء أسئلة الحاضر.

ومن هذا المنطلق "يرى عبد الكريم غلاب" أنَّ الرواية العربية لا ينبغي أن تنفصل عن سياقها الاجتماعي والتاريخي، بل عليها أن تعكس حياة المجتمع بكل ما تنطوي عليه من تحولات وتناقضات. فالرواية في جوهرها مرآة تعكس هموم الناس وتطلعاتهم، وتسعى إلى تصوير تفاصيل حياتهم اليومية بما في ذلك من "الثقافة والعلمارة، واللباس والسلوك ومجل نظم العيش وتقاليده". (الجرطي، 2015، صفحة 103)

إن الواقع في الرواية التاريخية يضفي على الماضي صورة يبتكرها الكاتب، بوصفه فضاءً تتداخل فيه الوقائع التاريخية مع الرؤية التخيلية، وهو ما يسهم في "إضفاء صيغة جديدة للرواية العربية على الصعيد الفني". (يقطين، 2005، صفحة 202)

ويذهب المفكر ناصر الدين سعيدوني: إلى أن مدى صدق الرواية التاريخية لا يتحدد بمدى تطابقها الحرفي مع الوقائع، بل بطبيعة التوظيف الفني الذي يمارسه الروائي داخل النص السردية. "وتحليل الظروف والملابسات التي ظهر فيها النص التاريخي أو الأدبي، والتعرف على موقف صاحب النص من الأحداث، وذلك قبل الإقدام على صياغة الأحداث، وإعادة البناء التصوري للماضي". (دهاش، 2018، صفحة 533)

خاتمة:

تتيح لنا هذه الورقة البحثية جملة من الاقتطاعات، نجلها في:

- إنَّ انتهاء المتن الحكائي بنبذة مأساوية لا يعني انغلاق افق الدلالة. بل يكشف عن وعي سردي يجعل من الواقع الاجتماعي مادة للتأمل والكشف لا مجرد خلفية للأحداث.
- يتأسس البناء الروائي على رؤية وصفية- تقديرية للواقع. تتوسل باللغة السردية لاستشارة وعي القارئ وإشراكه في تأويل التحولات التي تطبع المجتمع والتاريخ.
- يكشف الاشتغال السردية عن وعي فني يزواج بين التخيل والمرجعية الواقعية؛ بحيث يغدو التاريخ مادة تخيلية تعاد صياغتها ضمن أفق جمالي يعيد إنتاج الماضي في صورة فنية جديدة.
- يفضي التفاعل بين الواقعي والتاريخي إلى تأسيس خطاب روائي قادر على تمثيل تحولات المجتمع. وجعل النثر فضاءً لتجسيد التجربة الانسانية في ابعادها الثقافية والاجتماعية.

- إن استحضار الروح التاريخية للواقع الاجتماعي لا يكفي لإعادة تمثيل الماضي. بل يسهم في ترسيخ جبالية السرد وتعميق البعد الدلالي للنص، بما يمنحه القدرة على الامتداد والتأثير في أفق القراءة والتأويل.

قائمة المراجع

1. إبراهيم الحجري. (2014). الرواية العربية الجديدة. السرد وتشكل القيم، ط1. لبنان: alaya للدراسات ونشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
2. أحمد الجرطي. (2015). الرواية العربية: المتخيل وبنية الفنية للناقدة منى العيد. نحو رؤية جديدة لسياق التكون وآفاق الممارسة النقدية. مجلة تبين، العدد 4/14.
3. أحمد لعياضي. (2020). التاريخ وجماليات الرواية العربية الجديدة، رواية "ليالي إريس كويا" لواسيني الأعرج أمودجا. مجلة العارة والفنون والعلوم الإنسانية، عدد خاص، أكتوبر.
4. السيد ولد أباه. (1994). التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ط1. لبنان: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
5. الصادق دهاش. (2018). إشكالية المنهج التاريخي في الدراسات النقدية الأدبية. مجلة الصوتيات، المجلد 2، العدد 2.
6. جورج لوكتش. (1985). دراسات في الواقعية، تر: نايف بلوز، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
7. جورج لوكتش. (1988). نظرية الرواية وتطورها، تر: نزيه الشوفي، تركي محمود.
8. حسين حمري. (بلا تاريخ). نظرية النص من بنية المعنى إلى سمائية الدال. منشورات الاختلاف، الدار العربية.
9. حسين مؤنس. (بلا تاريخ). التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ، ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحت في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ. العربية للطباعة والنشر، دار الرشد.
10. حميد الحميداني. (1984). من أجل تحليل سوسيو - بنائي للرواية، رواية المعلم علي نموذجاً. منشورات الجامعة.
11. حميد الحميداني. (1985). الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة نبوية تكوينية، ط1، المغرب: دار الثقافة، الدار البيضاء.
12. رامي نزيه حفيظ أبو شهاب. (ديسمبر، 2021). الرواية التاريخية نوايا الكتابة ... ومقاصد التخيل ... في رواية القرصان لعبد العزيز آل حمود. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، 12 (03)، 109.
13. ريمة كعبش. (بلا تاريخ). جماليات توظيف التاريخ في روايتي "بوح الرجل القادم من الظلام" و "حوية ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" للروائيين "إبراهيم سعدي" و "عز الدين جلاوي"، .
14. سعيد يقطين. (2005). من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الايداع التفاعلي، ط1. المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
15. سيد حامد النساج. (1967). رحلة عبد الكريم غلاب مع الرواية المغربية. الأقلام، العدد 9، 119.
16. صلاح فضل. (2003). أساليب السرد في الرواية العربية، ط1. بيروت: دار المدى للثقافة والنشر.
17. ضيف الله البشير. (2018). الراهن والتحويلات مقاربات في الرواية العربية، ط1. دار كتارا للنشر، .
18. عبد الحميد عقار. (1421هـ/2000م). الرواية المغاربية وتحولات اللغة والخطاب، ط1، المغرب: شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، .
19. عبد الرحمان مجيد الربيعي. (2005). (الرواية والتاريخ) والتساؤلات المتداخلة، الحياة الثقافية، العدد 169.
20. عبد الكريم غلاب. (2011). دفن الماضي. المغرب: دار نشر المعرفة.

21. عبد المالك مرتاض. (1998). نظرية الرواية بحوث في تقنيات السرد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
22. علال الفاسي. (1952). النقد الناقى، ط1. منشورات دار الكاف للنشر والطباعة والتوزيع.
23. علي صوشة سهيلة. (2021). الرواية المغربية بين جدلية التحديث ورهانات الهوية. مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد 10، العدد 5، 856.
24. غيورغ لوكاتش. (2021). الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، ط1. العراق: منشورات الجمل، بغداد.
25. فيصل دراج. (2004م). الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية. المغرب، ط1: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء..
26. قسطنطين زريق. (1959). نحن والتاريخ مطالب وتسؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ، ط1.. لبنان: دار العلم للملايين.
27. محمد بوعزة. (2010). تحليل النص السردى. تقنيات ومفاهيم، ط1.. الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة.
28. هنية جوادي. (2021 جوان). الموت وتراجيديا التخييل الروائي في: الموت في وهران للحبيب السائح. مجلة بدايات، المجلد 2، العدد 4، 7.
29. يحيى بوعزوز. (بلا تاريخ). علم التاريخ بين المسلمين وغيرهم.. الجزائر: معهد التاريخ جامعة السانبا.